الفصل الخامس والعشرون

الخنجر على الوسادة

بعد مرور عدة أيام على مغادرة هنري أوف شامباني لعكّا حيث أخذ مقاييس المركيز لتفصيل زي التتويج، كان مزاج كونراد ما يزال ودوداً. كان ينتظر بفارغ الصبر تمضية الأمسية برفقة أسقف بوفي اللطيف ولكن عيل صبره عندما أطالت زوجته مكوثها في الحمّام، فذهب إلىٰ الأسقفية بمفرده ساخطاً حانقاً على الزواج والزوجات. خاب أمله عندما عَلِم بأن الأسقف اللطيف قد سبقه في تناول العشاء وعجز بوفي عن إقناع الكونت بأن يتعشّى. كان تأخُّرُ زوجته في الحمّام قد أزعجه فارتدّ عائداً إلىٰ منزله بمفرده.

تنبأت الرواية الإسلامية لهذا الحدث بما سيحصل لهذا العدو القوي فوصف مؤرخ مسلم رحلة العودة عبر أحياء صور المغلقة بقوله: «إلىٰ جهنّم وبئس المصير. كان مالك منتظراً قدومه والجحيم مترقبةً وصوله. اشتعلت أسفل دركات النار والتهبت في انتظاره. دنت ساعة استقبال هاوية جهنّم له والتهاب النار من أجله، وأخذت ملائكة الجبار تبني له الموضع النتن حيث سيخضع للعذاب. لقد فتحت جهنّم أبوابها السبعة تتوق لابتلاعه».

وصل كونراد إلىٰ زقاق ضيّق في السوق، وعندما بلغ إلىٰ منتصفه تعرّف

على راهبين مألوفين من أتباعه، رجلين عملا في خدمته لأكثر من ستة أشهر وتمكنا من كسب ثقته بعملهما المتقن الأمين. جلسا على جانبي الطريق. وعندما ألقى عليهما كونراد السلام، وقف أحدهما وقدّم له رسالة. ومدَّ المركيز يده لأخذ الرسالة، فسحب الرجل سكيناً وغرزها في جنبه بينما وثب الرجل الآخر على مؤخرة حصان كونراد وطعنه في جنبه الآخر طعنات متكرّرة إلىٰ أن وقع كونراد أوف مونتفرّا لاهثاً على الأرض.

استغلّ المهاجمان الصخب والضجيج للفرار. أُلقي القبض على أحدهما وقُتِل على الفور. أما الثاني فاختبأ في الكنيسة ذاتها التي أُحْضِر إليها كونراد النازف دمه ولكن كان قلبه لا يزال يخفق. ونقلاً عن مصدر مسلم، انقضّ عليه المعتدي مرّة أخرى «كالذئب المسعور» وقتله. عندما جُرّ القاتل إلىٰ خارج الكنيسة وأُخضع للاستجواب، صرخ، في بادىء الأمر، مدعياً أن ملك إنكلترا هو من أرسلهما لتنفيذ هذه المهمة. الكثير رأى في كلامه مسحة من الحقيقة فلم يكن يخفى على أحد بأنّ ريتشارد لم يختر كونراد كي يكون ملكاً. لكن عند إخضاع القاتل لمزيد من الاستجواب تكشّفت حقيقة أكثر رعباً.

كان الرجلان عضوين في طائفة الحشاشين، وهي فرقة من الإسماعيلية الباطنية. وكان مجرّد ذكر اسمهم أمام مسيحيي فلسطين ومسلميها كافياً كي ترتعد فرائصهم رعباً وخوفاً. انصاع المجرمان لأوامر إمامهما سِنان المعروف لدى المسيحيين بلقب «شيخ الجبل». إنّه راشد الدين سِنان «الباطني المعتقد»، عراقي قدم إلىٰ سورية منذ أربعين سنة خلت كي يكون داعي الدعاة للطائفة، فجمع حوالي ستين ألف مريدٍ، وأقام شبكة من القلاع المنيعة في جبال الأنصارية شمال سورية. واعتبرت مصياف أكثر هذه الحصون تميّزاً؛ فقد كان معْقلاً شُيّد على رأس هضبة شديدة الانحدار يطلّ على بلدة يقطنها مريدوه عند طرف الصحراء السورية. كما برز الكهف «عش الصقر»، الذي شيّد مقراً له في أغوار الجبل على ارتفاع يفوق عشرة آلاف قدم؛ كان الرجل العجوز يعتصم فيه عند تعرّضه للمضايقة.

كان سِنان رجلاً ذكياً، متفتّح البصيرة، خالياً من العاطفة والرحمة، مخادعاً، روحانياً، محبّاً للزهد، عيونه كالنيازك قوة، يتمتع بقدرة الطبيب في مداواة الأمراض، وقوة الجبابرة في التهديم المُرْعب. تردّدت الروايات عن قدراته فوق الطبيعية وشروره على ألسنة الناس. وقد كانت قدرته على التخاطر عظيمة حتى قيل بأنّه كان يستطيع الردّ على رسالة دون الحاجة لقراءة محتواها.

طوّر، على مرّ العقود، مسألة الاغتيال السياسي إلىٰ فنّ مبدع. وقد أثبت عمله هذا بأنّه وسيلة مثلى لتأمين حماية استقلاليته والحؤول دون توحيد سورية تحت حكم قائد واحد. خضعت لنفوذ سِنان مجموعة من المترهبنين الملقبين بالفدائيين الذين كانوا يكنون لشخصه ولاءً وإخلاصاً مطلقين. إنّ الدرب المؤدي للتطهّر والنور والجنة يمرّ عبر حكمة الداعي نفسهِ. وقد كانوا مستعدين لتنفيذ أي مهمة انتحارية للتعبير عن ولائهم الحصري لقائدهم. أراد سنان يوماً أن يُثْبت لأحد القادة الصليبيين إخلاص مريديه له، فلوّح بيده تلويحة سريعة لفدائيَيْن متواجدين في أعالي برج من أبراج الكهف وسرعان ما قفز الرجلان فور رؤيتهما الإشارة ليلاقيا حتفهما في وهدٍ سحيق. هل يودّ الإفرنجي أن يرى إذعاناً لمبدأ الطاعة أكبر من هذا؟ وأجاب الإفرنجي، مرعوباً، بأنه اكتفى بذلك!

وفي رواية أخرى، يقال إنّ الرجل العجوز أرسل بطلب فدائييه إلىٰ مقصورته حيث وُضع على طبق من ذهب رأس أحد الحشاشين الذي عاد من مهمة اغتيال. وما أن جلس الفدائيون كل في مقعده، حتى وجّه سِنان كلامه إلىٰ الرأس وسأل الشهيد إن كان يرغب في العودة إلىٰ الأرض. ردّ الرأس بذكر محاسن الجنّة وسعادتها: «إن الله وملائكته ينصرون جلالتكم ويطرحون أعداءكم في نار جهنّم. لا قيمة لهذه الحياة، ومن يضلّل نفسه يندم يوم لا تنفع ندامة. أنا من الأشخاص الذين ابتعدوا عن متاع الدنيا واعتزلوها». بعد خروج الفدائيين، أبعد الرجل العجوز الرأس عن الطبق الذهبي وزحف شاب من حفرة

في الأرضية بعد أن أتم أداءَ دوره ـ وكان جزاؤه ضرب سِنان لعنقه فعلاً وإرساله إلىٰ جنته التي يشتهي!

يشتق اسم الحشاشين من «الحشيش» إذ إن جزءًا من تلقين الفدائي لمبادىء الفرقة يحصل في احتفال يُعْطى خلاله الشباب جرعة يضاف إليها بعض الحشيش فيتخدّرون ثم يُنقلون إلىٰ بستان الداعي الجميل. عندما يستفيق الشباب، يعتقدون بأنّهم أصبحوا في الجنّة. وتصدر أوامر الاغتيالات في احتفال مماثل. وفي جوّ مُضبب بدخان الحشيش وفي غمرة فرحة الحشاشين لولائهم للداعي، يمد كل واحد منهم يده ويتلقى خنجراً. يصدر الداعي أمره له فيقول: «اذهب واقتل كونراد أوف مونتفرّا وعند رجوعك، سيحملك ملائكتي إلىٰ الجنّة. حتى وإن لاقيت حتفك، سأرسل ملائكتي لإرجاعك إلىٰ الجنّة».

يتحدر سِنان من البصرة في العراق، إلاّ أن جذوره الدينية تعود أصولها لبلاد فارس ولغلاة الشيعة. حتى في القرن الثاني عشر، اتّسمت المنافسة بين المذهبين الشيعي والسني بالقوة والانفعال، وقد ألقى سِنان اللوم على صلاح الدِّين لقضائه على الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة وفرض المذهب السنّي بدلاً عنها. حاول اغتيال صلاح الدِّين مرتين. في المحاولة الأولى سنة 1174م، أوقف الحشاشون على بُعد خطوات قليلة من صلاح الدِّين. واستشاط السلطان غضباً. وبما أنّه كان قد وحّد مكاسبه في شمال سورية، حوّل جيشه ضدّ هؤلاء الإرهابيين ساكني الجبال. أما المحاولة الثانية فقد جاءت رداً على هذا الاحتلال وأوشكت على تحقيق الهدف. تظاهر القاتل بأنّه أحد حراس صلاح الدِّين الشخصيين فطعنه بخنجره في جمجمته. وعلى الرّغم من الدماء التي كانت تسيل من رأس صلاح الدِّين والرعب الذي أحسّ به إلاّ أنه قاوم القاتل إلىٰ أن تمكّن حراسه من قتل الدخيل. ونجا صلاح الدِّين من هذه المحاولة لأنه كان يضع غطاء نحاسياً تحت عمامته.

نجاة صلاح الدِّين بأعجوبة من محاولة الاغتيال أحدثت في نفسه حالةً

من جنون الارتياب حول هذه الطائفة الخبيثة التي يصعب السيطرة عليها. وزادت حالة الارتياب هذه سوءًا بعد برهةٍ من الزمن عندما استبدل الحشَّاشون بمحاولة اغتيال ثالثة وضع بطاقة زيارة على وسادة السلطان؛ تمثّلت بخنجر وحلويات ساخنة. كيف تمكّن المجرمون من التسلل إلىٰ أكثر أماكن السلطان حميمية دون أن يلاحظهم أحد؟ ومنذ ذلك الحين، حرص صلاح الدِّين على السفر داخل مقصورة خشبية وعلى عدم توجيه الكلام إلىٰ أي شخص لا يعرفه في معسكره. ثم إنه ترك «شيخ الجبل» وشأنه في مقاطعته المحاطة بالجبال الوعرة.

كانت أراضي الحشّاشين تقع في الجبال تتوسط نهر العاصي والبحر المتوسط غربي حماة، كما أنها كانت متاخمةً لمناطق يحكمها رهبان عسكريون. وبوجود قلعتي الإسبتاريين أي قلعة المرقب وحصن الأكراد، بالإضافة إلىٰ القاعدتين الأماميتين لفرسان الهيكل وهما كاستيل روج (قلعة يحمور) وكاستيل بلان (صافيتا)، تشكّلت دائرة واقية في الجنوب تحمي مقاطعة طرابلس ومدينة صور المسيحيتين.

ما اعتبر سنان المسيحيين اللاتين أعداءه الرئيسيين ـ بل كان الوزراء المسلمون في الشمال في حلب والموصل هم من يثيرون قلقه ـ ولذلك فعلى مرّ السنين، تكيّف الرجل العجوز مع وجود العنصر الأجنبي. اشترك الحشّاشون والرهبان المسيحيون في بعض النواحي. فقد كان هذان الفريقان من المتعصبين المحبّين للعزلة، وبدا أنّ كلاً منهما يفهم الآخر فهماً جيداً. كانت عمليات الاغتيال ضدّ الرهبان العسكريين عديمة الجدوى في كل المناسبات لأنّ القائد الكبير كان ينتقى من ضمن أعضاء الفرقة. ولكن عندما تخطى المسيحيون اللاتينيون الخط الفاصل وهدّدوا طائفة الحشّاشين، لم يتوانَ هؤلاء عن استخدام فنهم القاتل. فقضوا على ريتشارد الثاني الطرابلسي سنة 1154م عقب نزاع حدودي. وردّ فرسان الهيكل على عملية الاغتيال بذبح عدد من المسلمين.

وتم التوصل بعد ذلك إلىٰ تسوية ودفع الحشّاشون، لفترة من الزمن، جزية باهظة لفرسان الهيكل كي يتركوهم وشأنهم.

بعد مرور عقود على وجود سِنان في الجبال، ضعف ولاؤه لأئمة بلاد فارس القاصية ويعود السبب جزئياً إلىٰ معارضة الأئمة في بلاد فارس لادعاء سنان الألوهية. وخفّ بالتالي إيمانه بالمذهب الشيعي الإسماعيلي. فسمح لمريديه بمعاقرة الخمر وأكل الخنزير. وباشر الاهتمام بالنصرانية وبات متضلعاً في فهم تعاليم الكتاب المقدَّس. وظهر عليه الاستعداد لاعتناق النصرانية لو أنّ فرسان الهيكل يوافقون على إعفائه من دفع الجزية السنوية.

كتب أُسقف صور ما يلي: «إن تعاليم المسيح النبيلة بالمقارنة مع ما أورثه محمَّد لتابعيه المخدوعين قد جعلت سِنان يحتقر المعتقدات التي شربها مع حليب أمّه، ويكنّ البغض لتعاليم ذلك الدين المخادع». وفرح فرسان الهيكل على الأرجح للاهتمام الذي أبداه سِنان حيال دينهم.

في هذه الأثناء، تنكّر له أئمة طائفته. وقد كتب عنه رحّالةٌ مسلمٌ يدعى ابن جبير إبّان هذه الفترة، فقال: «.. قُيّضَ لهم شيطانٌ من الإنس يُعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالاتٍ موَّه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمُحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره، بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقةٍ جبلٍ فيتردى، ويستعجل في مرضاته الردى، والله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»[1].

بعد انفصال سِنان عن المذهب الشيعي، وادعائه الألوهية، والتلاعب بالدين المسيحي دون اعتناقه، اعتبرته كل الأطراف زنديقاً أو من أصحاب البدع. وبالتالي، زادت خطورة الرجل العجوز الساكن في الجبال. ذاع الصيت المرعب لهذه الطائفة الانتحارية وقائدها المتعصّب ذيوعاً سريعاً في كل أنحاء

(1) رحلة ابن جبير. تحقيق حسين نصار. مكتبة مصر، 1955، ص 243 (المترجم).

العالم. وانقلب الوضع انقلاباً غريباً حيث أصبحت هذه الطائفة موضوعاً لأبيات شعرية رومانسية ووُصف العنف الناتج عن المخدّرات بكل حرص على أنه عمل من أعمال الشيطان. إن بلوغ هذه الدرجة من الطاعة العمياء التي وصل إليها الحشّاشون تجسّد أوج الحب الرومانسي. وكتب أحد الشعراء: «إني لك بكليتي أكثر مما يطيع شيخَ الجبل الساكن في الجبال، فدائيوه». وجاء في كلام شاعر آخر «كما يخدم الحشّاشون سيدهم دون تردّد أهبك أيضاً حبي وإخلاصي المتناهي». وكتب شاعر ثالث: «أنا حشّاش في خدمتك يأمل الفوز بالجنّة عبر تنفيذ أوامرك».

بحلول سنة 1191م، كان كونراد المتغطرس قد تخطى عدداً كبيراً من الخطوط الحمراء الخطيرة. وباتخاذ كونت صور قرار رفض الحملة الصليبية للملك ريتشارد، كان يدفع ثمناً باهظاً لقاء استقلاله الخاص. فقد انقلب على الإنكليز وأمَّن ملاذاً للفرنسيين الآبقين من جيش ريتشارد. وكان بحاجة ماسَّة للمال. وسقطت هدية مفاجئة بين يديه من حيث لا يعلم. فقد ساقت عاصفةٌ باخرةً للحشاشين طافحة بكل غالٍ ونفيس إلىٰ مرفأ صور، واستولى كونراد على حمولتها وأَسَر طاقمها وقتل ربّانها. طالب شيخ الجبل بإعادة باخرته وحمولتها وطاقمها، ودفع تعويض عن مقتل زميله. سخر كونراد بهذه المطالب؛ ولم يعتد الرجل العجوز على التقدّم بطلبات مماثلة أكثر من مرة. ولذلك جمع مريديه المخلصين بكل برودة أعصاب وأعلن فتواه. وبعد أقل من سنة، مشى كونراد في ذلك الزقاق الضيق الذي قاده إلىٰ أكثر نيران جهنّم تسعُّراً.

وعن مقتل كونراد، كتب المؤرخ المسلم ابن الأثير: «في هذه السنة، في ثالث عشر ربيع الآخر، قُتل المركيس الفرنجي، لعنه الله، صاحب صور، وهو أكبر شياطين الفرنج»[1].

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 12/ 78.